على الرغم من مرور أكثر من سنة على صدور كتاب «أيام على غيابه» لالهام سعيد فريحه، لا تزال الأصداء الإيجابية التي استُقبل بها تتردد على أقلام كبار الكتّاب والنقّاد والمفكرين، في لبنان والعالم العربي. ففي الكتاب رصدٌ ذكي للأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية، بأسلوب مميز وبحاسّة إعلامية مرهفة... ومن هذه الأصداء، التي أحاطت بالكتاب، كلمة كتبها الشاعر والمثقف موريس النجار بمحبة وعمق. هنا نصها:

إلهام فريحه
قَلَم مُخمَل ونَبْض أنثوي

بقلم: موريس وديع النجّار

عندما أهداني الروائيُّ، الصديقُ، جان سالمه، كتابَ السيّدة إلهام فريْحه، " أيّامٌ على غيابه "، ساءلتُ نفسي:

ما تُراني واجدٌ في كتاب يضُمُّ مُقطعات وَردَت يوميّاتٍ في جريدة؟!

أما تَعدّاها الزمنُ، وأفلَ، بها، النهار، وقد كانت من بَنات يومها، وتدورُ حولَ شؤونٍ ظرفيّةٍ في السياسة، والاجتماع، والحياة؟!

أأغرقُ نفسي في تلافيفه وكأنّني أتقهقرُ إلى الماضي، في تفاصيله الرتيبة، وحيثيّاته البائدة؟!

أأدعُ بيتَ المتنبّي يَرسُمُ حالي، إذ قال:

أتى الزمانَ بنوهُ، في شبيبته،
فسرّهم، وأتيناهُ على الهرمِ...

وإذ بدأتُ قراءةً، فيه، ظنَنْتُ أن لن أكملَها، وجدتُني، تِباعًا، أتلقّفُ، بشغفٍ، مجرياته، فأستزيدُ، وأستطيبُ الرّحلةَ على مدارجه، وفي حكاياه.

إلهام فرَيحه!

تَكتُبُ بالقلم المُخمَل، والنّبض الأنثويّ الحادّ الفطرة، واللّمحات الدالّة، الرّقيقة الحواشي...

وهي، إذ تقصُّ عن الكبير، الكبير، سعيد فريحه، تأخذُكَ حيثُ ينطقُ القلبُ جواه، وتدفأ الجوارحُ بالنّجاوى، ويَطيبُ الحرفُ بالمداد الفلّ...

كيف لا!

والكلامُ يَدورُ على أمير الكلام، وسيّد الطرفة الذكيّة، وفارس اللياقة، والكياسة، ومواقف القلم المعزّة...

ولقد بَرَزت، حيثُ حطّت شباتها، وهيَ الغُصنُ الوريقُ، الوريفُ، المُثمرُ، على جذعٍ سامقٍ، نُسغُهُ الفطنَةُ، والأريحيّةُ، والكِبرُ...

إمرأةٌ، هيَ، من جبلّة الرّجال الصّلاب، على أنّها الوردُ تندّى، وأشرَق، وطفحَ بالعبير...

قادت هذه السيّدةُ قافلةَ "الصيّاد" في أحلكِ أيّام الحرب الأهليّة، يومَ كانَ السّنّانُ هو اللّسان، فجازت بها برزخَ النّار بين لبنان سعيد فريحه، الجميل، الهانىء، على هَناته، ولبنانَ الذي أدركنا، والذي، أسفًا، زادت عللُهُ، وتفاقمت، وتعسّرت أيّامُه، ودكنت لياليه.

كانَ سلاحُها عنادًا تناهى إليها من صُلب الأب الصُّلب، وذخيرتُها حُلمًا يَعضُدُ النّفوسَ الطموحة، ويَرقى بها، ما ادلهمّ الأفقُ، وثقلت الدّواهي.

في "صيّاد" "السّعيد" "جُعبَةٌ" حُبلى بالمُفاجآت، درَجنا على مُتابعتها، بوله، بيْنَ ستّينيّات وسبعينيّات القرن الماضي، يومَ كنّا طلّابًا جامعيّين، وكانت، بحقّ، كشكولًا فريدًا يجمعُ، بذكاءٍ حادٍّ، الظّرْفَ، والطّرفةَ، والحكمةَ، في أحدوثةٍ محبوكةٍ حبكَ الزّرد، وإطارٍ قَصصيٍّ مُتقَن، بلغةٍ سَلسةٍ، ميّاسةٍ، غنجةٍ، تعكسُ روحَ كاتبها الرخيّ الظلّ، العاشقِ الدائم للجَمال، وبخاصّة، الجمالِ الأنثويّ الهفهاف، الزّهراه...

وها ابنتُهُ، حبّةُ جنانه ، تأتي، إلى الحلبة، بعدَ غيابه، تجالدُ العوائقَ الجمّةَ، وتبني، في " أنواره " الغرّاء " زاويةً، تُدبّجُها بالشذرات الذكيّةِ، المُكثّفة، السّاحرة، ولتجعل، منها، "جُعبةً" جديدةً تليقُ بسالفتها الميمونة؛ وتسمُها باسْم " نادرة السّعيد "، لتكونَ، بجدارة، نادرة هذا " السّعيد " النّادر. فنعمَ الوارثُ، ونعمَ المورّثُ!

أن تقتنصَ العبرةَ في مَرويّات لُحمتُها، وسُداها، الحياةُ اليوميّةُ، النّمطيّةُ، وليْس الأحداثُ العظامُ، أو الوقائعُ الفصلُ، فهذا، لعمري، شهادةٌ على أنّ الكاتبَ ذو دُربَةٍ بشؤون القلم، وشجون الصحائف، وهو ابنُ بجدتها، يعرفُ، مليًّا، كيفَ "تُورَدُ الابل".

إلهام فريحه! من هذه النّدرى، يطيبُ، إثرَ قراءتها، التّنادُرُ، ويصفو السّمرُ، ويعذبُ المجلس. لا تتوسّلُ البلاغةَ، ولا تستجدي شواردَ الكلم، لتُغني مقالَها؛ على أنّ بيانَها رشيقٌ، صقيلٌ، ناعمُ الوقع، طريفُ الملاحظة، عميقُ الهمز، واللّمز.

تتناولُ كاتبتُنا حدثًا طارئًا، من عنابر السياسة، أو محافل الملأ، فتجولُ، بمبضعها الرّهيف، على ملءِ المشهد، من دون أن توفّرَ عليه نخاريبَهُ الدقيقةَ، ثمّ تغوصُ إلى خلفيّات الواقعة، وتومىءُ، بالبَنان الحصيفة، إلى مَواطن العلّة، بنقرةٍ هُنا، ونخزةٍ هُناك، وهزّةٍ هُنالك، ولا تدعُ القارىءَ يعودُ خاليَ الوفاض، بل تزوّدُهُ، من جنى واديها المِمراع، سلّةً ملأى أمثولات، عبرًا، وهُنيْهات طيّبات، لنْ ينسى طعمَ ثمارها أبدًا. كيفَ لا! وهوَ سيُواجهُ المواقفَ، عينَها، في قابل أيّامه؛ فالحالُ، بيْنَ ظهرانَيْنا، تتوالدُ، سُوءًا، فما ينكشحُ، عنّا، أفقٌ مُرْبدٌّ، حتّى يغشى السّماءَ اربدادٌ، بعدَه.

فبئسَ رجالٌ، من عمَد السياسة في "مرقد العنزة"، في قبضاتهم قيادُ القوم، وفي نفوسهم "الأنا" التي لا ترتوي، فزلاتُهُم لا تزولُ، وأحوالُهُم قلّما تحولُ، والعياذُ بالذي جلّ عن كلّ عثارٍ مرذول!

تكتُبُ "الالهام"، الموهوبةُ، على سجيّتها، بخفّة دم بارزة، ودُعابة لا تستجدي الابتسامةَ، بل تنتزعُها، لأنّها عفويّةٌ، ساحرةٌ، سليمةُ الأداء. وأن تؤطّرَ الواقعةَ الطفيفةَ بالمُبالغة الأريبة المُحبّبة، اللّمّاحة، تُحيلُ المأنوسَ إلى المؤنس، والرّتيبَ، الباهتَ، إلى مُزاحةٍ ترسُمُ البسمةَ في الأسارير، وتنزعُ الغُصّةَ من الحنايا، فهيَ "سعيديّةُ" الجذْر، "مازنيّةُ" السَّليقة...

"أيّامٌ على غيابه"!

باصرةٌ جالت، وبصيرةٌ نفذت، فأدركت ثنايا الصّورة، وما تُخفي البراقعُ، فإذا الحصادُ من أسفار الأيّام، وأزوادِ العُمْر!

كتابُ سجلٍ، خطّت فيه الرّيشةُ اليقظى أحكامًا من الحياة، وإلى الحياة.

وستبقى وُريقاتُهُ، لِمَن أوتي الغوصَ إلى القرارة، لوحاتٍ في طباع النّاس التي، وإن تبدّلت مظهرًا، لا تنفصلُ، في سُويْداها، عن هيولاها الأولى، وما جُبلت عليه، بيد المثال الأوّل.

بُوركت يراعتُكِ، سيّدتي، وإلى مزيدٍ!

فخبزُكِ لا يتآكلُهُ العفن، ونبيذُكِ يطيبُ، على الحقب...